تخطيط الفسطاط (١)

بزوغ نجم العمارة الاسلامية بمصر

كان عمرو بن العاص اداريًّا حازماً وسياسيًّا محنكاً بقدر ما كان قائداً عربياً . وكانت لهُ بمصر صلة تجارية مكنتهُ من درس احوالها درساً سياسيًّا وحربيًّا واقتصاديًّا قبل قدومهِ اليها بجيشهِ لغزوها وانتزاعها من ايدي « الاغريق اوالبيزنطيين » الذين يقال لهم « الرومان » خطأً

هذا ولا يعرف بالتحقيق ان باحث الامير عمرو بن العاص امير المؤمنين « الفاروق » في امر اعداد حملة على مصر بل ولا تاريخ هذه المفاوضة . غير ان المظنون ان هذه المباحثة حدثت في فترة حصار « قيسارية » حيث كان الامير عمرو مشتركاً في هذا الحصار بينما كان امير المؤمنين « الفاروق » مقيماً في معسكره بالقرب من دمشق وكيفما كانت الحال فقد اسفرت المفاوضة بينهما عن الاتفاق مبدئيًّا على فتح مصر بعد ما بسط ذلك الامير الداهية لسيده اسباب الحاجة الى هذا الفتح وضرورة الاستيلاء على مصر اعلاء لشوكة الاسلام ونشراً لرايته

وقد كان من اكبر الاسباب التي حملت عمرو على الاسراع في العمل والزحف على مصر ان « ارطابيون » حاكم اورشليم الاغريقي الذي ترك بيت المقدس قبل ان يضيق المسلمون الحصار عليهِ هرب الى مصر فأخذ يلم شعث جيشها وينظمهُ حتى يستطيع الثبات في وجه الجيش العربي ان حدثتهُ نفسه بالزحف على مصر

***

سار عمرو على رأس جيش مكون من ٤٠٠٠ جندي حتى بلغ رفح وبحيلتهِ المعروفة طاول رسول امير المؤمنين حتى بلغ العريش واجتاز حدود مصر الى ان بلغ « الفرما » ومنها سار الى القنطرة وواصل السير حتى بلغ العاصمة بلبيس فاحتلها

شخص عمرو ببصره فلاحت له (هليوبوليس) او (عين شمس) بعد مسيرة يوم كامل وسط المزارع والحقول لكنهُ كان يرنو الى نقطة اخرى على النيل هي قرية (ام دنين) التي كانت شمالي مدينة بابيون عاصمة مصر في ذلك العهد والتي يكاد يكون موقعها اليوم على التقريب محصوراً بين شارع كلوت بك شرقاً وجنوباً وبين شارع قنطرة الدكة غرباً وشارع اولاد عنان

---

(١) عن محاضرة القاها الاستاذ محمود احمد مدير قسم الآثار العربية بوزارة الاوقاف في نادي رابطة الادب الجديد بمصر

ونوبار باشا شمالاً . فقد كانت (ام دنين) ميناءً نهريًّا هامًّا ومرتعاً حربيًّا حصيناً وخط دفاع قوي عن ذلك الحصن المنيع المعروف بحصن (طريانوس) والذي نسميه اليوم (قصر الشمع) التائهة فوقهُ الآن (الكنيسة المعلقة) الغنية عن الذكر

لذلك كان لا بدَّ للجيش العربي لكي يستولي على عاصمة مصر حينذاك وعلى حصنها — من الاستيلاء اولاً على (ام دنين) وكان لا بدَّ للاروام لكي يحافظوا على العاصمة وحصنها من الاحتفاظ بام دنين وعدم تمكين العرب من الاستيلاء عليها . فدافعوا عنها دفاعاً شديداً اوقف جيش عمرو عن التقدم نحو بابليون فترة غير قصيرة . وجعل مصير المعركة معلقاً في ميزان القدر لا يعلم ايُّ الفريقين يكون النصر في جانبه يدلُّ على ذلك قول المقريزيُّ : —

ان القتال اشتدَّ عند ام دنين حتى تأخر النصر وقول ابي المحاسن حمي وطيس الحرب الى درجة جعلت معرفة اي الفريقين ينتصر متعذرةً فيها

واخيراً وبخدعة حربية قامت بها القيادة العربية بعد ما وصلتها امداد كافية تحت قيادة الامير الزبير بن العوام ثم بجهل (تيودور) قائد الجيش الروماني بخدعة عمرو الحربية ، انهزم الروم هزيمة تحوَّلت الى كارثة حيث ابيد جيشهم عن بكرة ابيه الاَّ ٣٠٠ جندي تقهقروا الى حصن بابليون فوجدوا ابوابه مغلقة استعداداً من حاميته للدفاع عنهُ

لكن الاخبار التي تسرَّبت الى حامية الحصن خاصة بشدة هول النضال وبشدة بأس العرب خلعت قلوب جانب من حماة الحصن فلجأوا الى الفرار بطريق النيل الى مختلف الجهات

وكذلك اذنت نتيجة معركة ام دنين بقرب زوال الحكم البيزنطي ووضع اول حجر في أساس الحكم العربي

***

تحصن الاروام داخل حصن بابليون واحاطوه بخندق عميق نشروا في قاعهِ حسك الحديد (الحديد الشائك) . لكن القدر كان قد بتَّ في مصير هذا الحصن فان انتصار العرب في ام دنين كان لهُ تأثير عظيم ومزايا لا تقدَّر . فان بابليون او (مصر) التي كان يحميها الجيش الروماني المرابط في هذه العاصمة . اصبحت تحت رحمة عمرو الذي ملكها بغير قتال ثم سيطر على شاطىء النيل شمالي الحصن وجنوبيهُ بعد ما نقل معسكره من هليوبوليس وحشد جيشهُ شمالي الحصن في فضاء من الارض ممتد على التقريب اليوم من جامع عمرو جنوباً الى مجرى العيون يقع الخليج شمالاً اطلق عليهِ الاروام اسم (فسلطوم) اي (المضرب) وسماه العرب بعد ذلك (الفسطاط) وفيهِ انشأ العرب بعد سقوط حصن بابليون في ايديهم تلك البيوت الساذجة التي كان قوامها الطين واللبن والتي تكوَّن من مجموعها حيٌّ من احياء العاصمة كان على بساطته مقرَّ الحكم

ودار الامارة . اما ما ذكره المؤرخون غير ذلك من اسباب تسمية الفسطاط فلا سند له ولا يصح الركون اليه

تمت الفسطاط واتسعت عاماً بعد عام وادمجت فيها بابليون العاصمة القديمة فتنازلت لها هذه عن السيادة الى الآن ورضيت مرغمة بمحو اسم (بابليون) من عالم الوجود الاَّ انها احتفظت باسمها الثاني اسمها الخالد وهو (مصر) فان الفسطاط مع سطوتها لم تستطع محوه بل ولا اخفاءهُ فرضيت بمشاركته وصارت فسطاط عمرو تعرف (بالفسطاط وبفسطاط مصر) و(مصر) فقط فلما انشئت القاهرة ونقل مركز الحكم اليها تغلب اسم (مصر) على الفسطاط فتوارت الفسطاط كثيراً وها نحن اليوم نناديه باسم (مصر العتيقة) وذلك على الرغم من ان هذا الحي الذي نناديه الآن بذلك الاسم كانت ارضه وقت انشاء الفسطاط جزءاً من مجرى النيل مغموراً بمائهِ لم ينحسر عنها الاَّ في اواخر القرن الرابع الهجري ولم تنشأ فيها ابنية الاَّ بعد ذلك التاريخ

وهنا نرى الفرصة سانحة الجهر بحقيقة يتعين علينا اثباتها خدمة للحق والتاريخ وهي ان الفسطاط دثرت ودرست معالمها من نحو خمسة قرون ودفنت انقاضها وآثارها واسمها تحت تلك الاطلال الممتدة من عين الصيرة جنوباً الى حي البغالة وابن طولون شمالاً الى ان كانت سنة ١٩١٨ حيث بعث اسمها من مرقده الاثري المؤرخ المرحوم « علي بك بهجت » مدير الآثار العربية الاسبق وبذل جهد الجبابرة حتى رفع التلال عن جزء من موقعها ثم عهد اليَّ في اعادة تخطيطه على اصله واصلاح ما امكن من بيوته ومصانعه التي ابقى الدهر على كثير من معالمها . وقد تفضل بعد ذلك جلالة مليكنا المعظم فشرَّفها بزيارته الكريمة وها هي اليوم يؤمها الفضلاء والعظماء من رجال الآثار ولا تزال تنادي ابناءها المهندسين المصريين ان تعالوا وابحثوا وتقصوا فني آثاري من مواد البناء ومونه وطرق تخطيطه ما انتم بحاجة شديدة الى درسه وتفهمه والوقوف على مكنون سره مما يساعدكم على النهوض باعباء أعمالكم الحاضرة وفي بيوتي من النظام والترتيب ما يهديكم الى الطراز الملائم لمناخ بلادكم وعاداتها وما يجعلكم توقنون حقًّا ان تلك المدارس الاسلامية المتعامدة انما اختطَّها المهالبك على مثال ذلك البيت القديم المصري البديع

***

نعود الى حصن بابليون فنراهُ على الرغم من هروب بعض حاميته قويًّا منيعاً يعزُّ على المهاجم اقتحامه خصوصاً بعد ما تعزَّزت حاميته بالنجدات القوية التي جمعها قواد الروم من انحاء الوجه البحري ووضعوها تحت تصرف (سيروس) الذي سماه العرب (المقوقس) حاكم مصر ونائب الامبراطور (هرقل)

كذلك نرى جيش عمرو محدقاً بالحصن من جهتيه البحرية والشرقية فقط بخلاف الجهتين